■ الباب السادس عشر

الانشقاق

في عام واحد وستين وتسعمائة وألف ساءت حالة مستر محمد الصحية .

صار حينما أتحدث إليه وأنا أزوره أو حينما يتحدث مع أي شخص آخر يبدأ فجأة في السعال بشدة وتزداد حدة ذلك إلى أن يبدأ جسده كله يهتز ويخفق وهو يتعذب وصار منظره مؤلماً مما يضطر معه إلى اللجوء إلى سريره .

احتفظنا نحن كبار مسئوليه وعائلته بالأمر سراً بقدر استطاعتنا ثم بدأ عدد من المسلمين الآخرين يلم بالسر ثم بدأ مستر محمد يلغي عدة لقاءات جماهيرية ومحاضرات عامة كان قد أعلن عنها مسبقاً وانتظرها المسلمون طويلاً وعند ذلك شك المسلمون في أن ما يمنع مستر محمد من الحضور للقائهم لابد أن يكون شيئاً خطيراً . كان علينا أن نجيب على تساؤلاتهم ومن ثم انتشر خبر حالته الصحية بين المسلمين بسرعة .

THE AUTOBIOGRAPHY OF
MALCOLM X

لا يستطيع أحد من غير المسلمين تخيل معنى فقدان مستر محمد بالنسبة لأتباعه . مستر محمد هو أمة الإسلام بالنسبة لنا . توقيرنا وإخلاصنا نحن المسلمين لمستر محمد كمصلح روحي وخلقي وعقلي للسود في أمريكا كان العروة التي توثقنا مع بعض في أفضل منظمة أمريكية سوداء . بمعنى آخر أننا كنا بأتباعنا دعوة محمد ، ننظر إلى أنفسنا كمثل يحتذى روحياً وخلقياً وعقلياً . كانت المجتمعات السوداء تتحدث عن منظمتنا بإعجاب وكيف أن من يكذب منا أو يقامر أو يغش أو يدخن تعلق عضويته . أما بالنسبة للجرائم الأخلاقية مثل الزنا فقد كان مستر

محمد شخصياً يحدد عقوبة من يرتكبها « بالعزل» من الجماعة لفترة تمتد من سنة إلى خمس سنوات إن لم تكن العقوبة هي الفصل التام كما أن مستر محمد كان يتشدد في معاقبة مسئوليه الكبار أكثر من تشدده في معاقبة المهتدين الجدد . كان يقول لنا أن من يرتد من كبار المسئولين إنما يخون نفسه ووضعه كقائد ومثل يحتذى للآخرين . وكل مسلم في رفضه للموبقات المغريات كان ينظر إلى مستر محمد كمنارة ومرشد وبدون هدايته سنعيش كلنا في ظلمات .

كما ذكرت قبلاً ، نصح الأطباء مستر محمد بالانتقال إلى طقس جاف كي تتحسن حالته وبسرعة وجدنا منزلاً معروضاً للبيع في مدينة فينكس كان يملكه عازف الساكسفون الزنجي ، لويس جوردان فاشترته الأمة من خزانتها وانتقل مستر محمد إلى هناك بعد فترة وجيزة .

كنت أعمل بجد في خدمة الأمة وكأنني أكثر من شخص وكنت راضٍ كل الرضا ووجدت ذاتي في خدمتها . لقد ساهمت في دفع عجلة المنظمة وجعلها ذات أثر قومي بدرجة لا يستطيع معها أحد أن يتهمنا بالكذب عندما نصف مستر محمد بأنه صاحب أكبر نفوذ بين السود في أمريكا . لقد ساعدت مستر محمد وأئمته الآخرين بتنوير تفكير الرجل الأسود في أمريكا وفتح عيونه حتى أصبح لا يخاف من الرجل الأبيض أو يعبده مثلما كان . لقد شاركت في نشر الوعي والحق اللذين ساعدا الرجل الأسود ليتخلص من الوهم الذي كان يحكمه عن عظمة الجنس الأبيض . كنت جزءاً من عملية اكتشاف السود لأنفسهم .

وإذا كنت أتأسف على شيء فهو أنني كنت داخليًّا مقتنعاً تماماً أنه بإمكان أمتنا أن تكون لها قوة ونفوذ أكبر في نضال الرجل الأسود في أمريكا – فقط لو زدنا من نشاطنا أكثر . بذلك أعني أنني كنت داخلياً أؤمن بأننا ينبغي أن نعدل أو نخفف قليلاً من سياسة الابتعاد عن الأمور العامة . كنت أرى أن على شبابنا المسلم المنضبط أن يشترك في أي حركة نضالية للسود في لتل روك أو في بيرمنجهام حتى يراهم كل العالم ويحترمهم ويتحدث عنهم .

بدأ الزنوج يتحدثون في مجتمعاتهم وبدرجة متزايدة ويقولون : « المسلمون يتحدثون ولكنهم لا يفعلون شيئاً إلا إذا مس شخص ما مسلماً بأذى » كنت أسمع ذلك لأني كنت أتحرك وسط الآخرين أكثر من أي مسلم قيادي آخر . كنت أرى أن مثل تلك الصورة عنا والقول بأننا كثيرو الكلام فقط يحتمل أن تؤدي يوماً إلى إبعادنا من مقدمة نضال الرجل الأسود مهما كانت قوتنا خاصة إذا تذكرنا مزاج الجماهير المتقلب .

ما عدا ذلك التحفظ كنت راضٍ تماماً وحامداً لله مباركة جهودي . كان الإسلام ينتشر في مدينة نيويورك بسرعة لا مثيل لها في أي مكان آخر في أمريكا .

كبر المسجد الصغير الذي أرسلني إليه مستر محمد وأصبح لدينا بدلاً من ذلك ثلاثة من أكبر مساجد المسلمين وأكثرها نفوذاً وهي مسجد هارلم رقم سبعة – أ في مانهاتن ثم مسجد كورونا رقم سبعة – ب في كوينز والمسجد رقم سبعة – ج في بروكلين. وعلى مستوى القطر أنشأت مباشرة أو ساعدت في إنشاء مساجدنا التي تفوق المائة في ولايات أمريكا الخمسين. كنت أقطع أمريكا من جنوبها إلى شمالها أو من شرقها إلى غربها بمعدل أربع مرات كل أسبوع وكل حظي من النوم أحياناً كانت الساعات التي أقضيها في الطائرة. كنت أتبع جدولاً ماراثونياً من المقابلات الصحفية والإذاعية والتلفازية والمحاضرات العامة وكأنني في سباق ولولا الجناحان اللذان وهبهما لي مستر محمد ما كنت سأستطيع أن أقوم بالواجب نحوه وفي خدمته.

عودة إلى الوراء، سمعت بالصدفة ولأول مرة في عام ١٩٦١ عندما ساءت حالة مستر محمد الصحية، تعليقات سلبية عني. سمعت تلميحات مقنَّعة أولاً ثم بدأت ألاحظ شواهد صغيرة أخرى عن الغيرة والحسد اللذين تنبأ لي بهما مستر محمد. كانوا على سبيل المثال يقولون: «منستر مالكوم يسعى للسيطرة على الأمة.» أو أنني «أرجع الفضل لنفسي» فيما يختص بتعاليم محمد أو أني أسعى «لبناء إمبراطورية» لنفسي وأنني استمتع بلعب دور «الشخصية الكبرى من مدينة لأخرى».

لم أغضب عند سماعي هذه الأشياء بل زاد ذلك من عزمي أنني لن أدع مثل هذه الأكاذيب تنطبق علي أبداً وكنت دائماً أذكر نفسي أن مستر محمد تنبأ لي بغيرة وحسد الآخرين. ساعدني ذلك على تجاهل مثل ذلك الكلام لأني كنت أدرك أن مستر محمد سيفهم مصدره إذا سمعه على الإطلاق.

الإشاعة التي كانت تتردد بين غير المسلمين هي أن «مالكوم جمع ثروة من المال.» أما المسلمون فقد كانوا يعرفون الحقيقة. أنا أجمع المال؟ يا للغرابة! الـ اف. ب. آي. (مكتب التحقيقات الفيدرالية) والسي.آي.ايه لا يستطيعون مجتمعين أن يبرهنوا أنني أحوز على شيء سوى العربة التي أقودها والمنزل المكون من سبع غرف الذي أسكنه (وحتى ذلك المنزل كانت عناصر في أمة الإسلام تطمع في أخذه مني) نعم كان المال متاحاً أمامي لو أردت وسيوافق الإيجا محمد على أي مبلغ أطلبه ولكنه كان يدرك ككل مسلم قيادي آخر، أن أي بريزة أو نكلة عندي إنما هي لأمة الإسلام تستخدمها في تحقيق أغراضها.

نظرتي إلى المال كانت السبب في الشجار العائلي الوحيد بيني وبين زوجتي المحبوبة بتي. مع زيادة عدد أطفالنا كانت بتي تلمح لي بأن أدخر شيئاً من أجلهم ولكني رفضت ومن هنا تشاجرنا. أصررت على موقفي علماً بأنني كنت متأكداً أنها على استعداد للتضحية بحياتها من أجلي إذا ما اقتضى الأمر ذلك ولكني مع هذا

أخبرتها أن كثيراً من المنظمات تحطمت بسبب طمع قادتها في ممتلكاتها بعد أن دفعتهم زوجاتهم إلى ذلك . لقد كدنا أن ننفصل بسبب ذلك ولكني أقنعتها بأن أمة الإسلام ستعتني بها بقية عمرها إذا ما حدث لي شيء ، وبأطفالنا إلى أن يكبروا . لم أكن لأكون اكثرغفلة من ذلك !

في كل حديث تلفازي أو إذاعي وفي كل مقابلة صحفية كنت أوضحها جلية أنني **ممثل** مستر محمد وكل من سمعني في محاضرة عامة يتذكر أنني كنت دائماً أردد ، على الأقل مرة كل دقيقة ، « يقول الإيْجا محمد صاحب الشرف ... » كنت أرفض الحديث مع أي شخص يسخر من رجوعي الدائم في الحديث إلى ما يقوله مستر محمد وإذا كتب أحدهم في صحيفة أو قال : « مالكوم إكس ، المسلم الأسود رقم اثنين ... » كنت أنتفض لذلك وقد حدث أنني اتصلت هاتفيًا من خارج المدينة مع مراسلين صحفيين ومذيعي راديو وتلفاز طالباً منهم عدم استعمال تلك الكلمة مرة أخرى قائلاً لهم : « كل المسلمين يأتون رقم اثنين في الترتيب – بعد مستر محمد ».

حقيبة يدي كانت تمتلئ بصور مستر محمد التي كنت أعطيها للصحفيين الذين كانوا يأخذون صوراً لي وكنت أتصل هاتفياً بالمحررين راجياً : « هلا استخدمتم صور مستر محمد بدلاً عن صوري .» وعندما وافق مستر محمد على الحديث مع الصحفيين البيض سررت بذلك أيما سرور وكنت ألح على كل صحفي أو كاتب أقابله ، أبيض كان أم أسود ، أن يذهب لمقابلة مستر محمد شخصيًا في شيكاجو : « أذهب وتلقى الحقيقة من المبعوث شخصياً » وفعلاً ذهب عدد منهم وتحدثوا إليه وكتبوا عن ذلك .

كثير من الناس البيض والسود بما فيهم المسلمين ، كانوا يزعجونني بإصرارهم على إرجاع الفضل لي وراء الانتشار والتقدم المتواصل الذي كانت تحققه أمة الإسلام . كنت أقول لهم « كل الحمد والشكر لله والفضل في كل ما يحمد لي هو لمستر الإيْجا محمد ».

أعتقد أنه لم يكن بمقدور أي رجل في أمة الإسلام أن يحقق السمعة العالمية التي تحققت لي بفضل الجناحين اللذين وضعهما مستر محمد على ظهري بالإضافة إلى الحرية التي منحني إياها لأفعل ما بدا لي ، ثم يبقى بعد كل ذلك خادماً مخلصاً وناكراً لذاته مثلي .

سأقول إنها كانت سنة ١٩٦٢ عندما بدأت ألاحظ أن اسمي بدأ يختفي تدريجيًا من صحيفة أمتنا ، **محمد يتكلم** . علمت بعد ذلك إن ابن مستر محمد ، هربرت ، الذي أصبح الناشر أعطى الأوامر بأن يكتب عني أقل ما يمكن وفي الحقيقة أصبحوا يكتبون عن « زعماء » الزنوج الاندماجيين أكثر مما يكتبون عني وصرت أجد كلاماً مكتوباً عني في الصحف الأوروبية والآسيوية والأفريقية أكثر

مما أجد في صحيفتنا .

لا أشكو هنا من قلة الدعاية لنفسي فلقد لقيت من ذلك أكثر مما تلقاه شخصيات عالمية كثيرة . لكنني حزنت لأن جريدة المسلمين كانت تخفي عنهم أخباراً عن أشياء مهمة عملت لصالحهم وباسمهم لمجرد أنني كنت من وراء تلك الأعمال . كنت أنظم التجمعات لنشر تعاليم مستر محمد ومع ذلك وبسبب الغيرة وضيق الأفق ، حُرمت من التغطية الصحفية لأن أمراً صدر بذلك . على سبيل المثال ، تحدثت مرة أمام ثمانية آلاف طالب في جامعة كاليفورنيا وأعطت الصحف تغطية تامة لما قلت عن قوة برنامج مستر محمد ولكني عندما عدت إلى شيكاجو متوقعاً استجابة طيبة وبعض التغطية الصحفية من صحيفتنا ، قوبلت ببرود بدلاً عن ذلك . نفس الشيء حدث بعدما نظمت اجتماعاً حاشداً في هارلم حضره سبعة آلاف شخص وعلى العكس من ذلك بدأت الرئاسة في شيكاجو تثنيني عن إقامة مثل تلك الاجتماعات لكنني في الأسبوع التالي نظمت اجتماعاً حاشداً آخر في هارلم كان أكبر وانجح من سابقه ، إلا أن ذلك زاد من الحسد الذي بدأ يأتيني من الرئاسة في شيكاجو .

لكنني كنت أطرد هذه الأفكار من رأسي ، على الأقل بقدر استطاعتي كبشر . لست أحاول هنا أن أظهر بمظهر النبيل الصدوق ولكني فقط أقول الحق . لقد أحببت الأمة وأحببت مستر محمد . عشت للأمة وعشت لمستر محمد .

صوري التي تظهر في الصحف يومياً أثارت الغيرة فهم ينسون أن صوري ظهرت بفضل دفاعي الحار عن مستر محمد وينسون أن أمتنا معرضة للكذب والإشاعات الضارة وليست بحاجة إلى أن يظل المتحدثون باسمها دوماً ينفون الإشاعات . المنطق يقول أن مستر محمد ليس في وضع يمكنه من أن يجوب البلاد دوماً ويتحدث باسمه وأن من يصبح متحدثاً رسمياً باسمه سيصبح محط أنظار الصحف ، شاء ذلك أم لم يشأ .

كنت أخجل من نفسي في كل مرة أشعر فيها بعدم الرضا من ذلك وأعتبر ذلك الشعور علامة ضعف في نفسي ، كنت أدرك أن مستر محمد على الأقل يعرف أني وهبت حياتي لتمثيله .

في عام ١٩٦٣ لم أعد أستطيع إخفاء شعوري أمام من ينتقدونني من بين قيادي الأمة . لم أعد أرسل بعض أخوة بعينهم من نيويورك وأعطيهم المال ليذهبوا ويضعوا اللبنات الأولى لمسجد هنا أو هناك حتى لا أسمع التعليقات عن « رجال مالكوم إكس » وفي الوقت الذي كانت أمريكا فيه في حاجة لأن تسمع صوتاً أسود جريئاً أرادت مجلة **لايف** أن تكتب قصة عن حياتي ومع ذلك رفضت . رفضت مرة أخرى حينما أرادت مجلة **نيوزويك** أن تجعلني رجل الغلاف وتكتب قصة عني ثم رفضت

مرة ثالثة فرصة للظهور كضيف لبرنامج « قابل الصحف » التلفازي الشائع الانتشار . كل رفض من هؤلاء كان خسارة للرجل الأسود ولأمة الإسلام ، كل رفض كان خسارة في ذاته وكل ذلك بسبب موقف شيكاجو مني . كانوا يغارون مني لمجرد أنني طُلبت لهذه المقابلات البارزة في الصحف .

عندما اخترقت طلقة نارية من بندقية ظهر مدجار إيفانز السكرتير الميداني لمنظمة تقدم الملونين الوطنية شعرت أن عليَّ أن أفصح بالحقيقة العارية التي ينبغي أن تقال وعندما انفجرت قنبلة في كنيسة زنجية في بيرمنجهام بولاية ألباما وأودت بحياة أربع طفلات سود صغيرات ، علقت على ذلك ولكني لم أقل ما يجب أن يقال عن جو الحقد الذي كان يخلقه الأمريكي الأبيض ويرعاه . كلما سُمح للبغض أن يظهر نفسه ويزداد بينما هنالك أكثر من طريقة لإيقافه ، كلما ازدادت جرأة من اقترفوا تلك الأعمال حتى طال ذلك الحقد في النهاية البيض أنفسهم – بمن فيهم زعماءهم . في مدينة دالاس بولاية تكساس مثلاً ، أسيء ببذاءة إلى نائب الرئيس حينها وزوجته مسز جونسون . كذلك بصقت مجموعة من النساء المتظاهرات البيض في وجه أدلاي ستيفنسون ، ممثل أمريكا في الأمم المتحدة وضربوه في رأسه .

نصبني مستر محمد في وظيفة الأمام الأول في أمة الإسلام وحتى سنة ١٩٦٣ احتضنني أمام حشد في فيلادلفيا وقال للجمهور : « هذا أخلص أئمتي وأكثرهم عملاً وسيتبعني إلى أن أموت ».

لم يقل ذلك عن أي مسلم وليس هنالك شهادة من أي شخص آخر تساوي عندي ما ساوته تلك الشهادة .

لكن ذلك كان آخر اجتماع عام نحضره أنا ومستر محمد سويًا .

قبل ذلك بمدة وجيزة كنت أتحدث من المذياع في بوسطن في برنامج يقدمه جيري وليامز حينما ناولني أحدهم وريقة خرجت لتوها من تلكس وكالة أسوشيتد برس . قرأت في تلك الوريقة خبراً يقول أن مجلس مواطني ولاية لويزيانا قدم عشرة ألف دولار ثمناً لرأسي .

إنني لا أقول إلا الحقيقة . عندما اكتشفت مَن ، بالإضافة إلى مجلس مواطني لويزيانا ، يريد قتلي ، صدقوني ، كدت أجن من الصدمة . في سنواتي الاثنتي عشر كمنستر مسلم كنت أركز بقوة على المواضيع الأخلاقية لدرجة أن بعضهم اتهمني «بمعاداة المرأة ». كانت عصارة تعاليمي وما أؤمن به حتى العظم هو أن حياة مستر محمد في كل جوانبها إنما هي رمز للعفة والطهارة وقمة الصلاح العقلي والروحي والخلقي في وسط الأمريكان السود . لأثني عشرة عاماً كنت أبشر وأقول وسط المسلمين وغيرهم :إن حياتي وهدايتي لهما خير مثال أعرفه لقوة مستر محمد ومقدرته على تقويم اعوجاج

حياة الرجل الأسود فأنا لم ألمس امرأة منذ دخلت السجن إلى أن تزوجت بعد اثنتي عشر سنة من ذلك وكل ذلك كان من أثر مستر محمد على تكويني .

ولكني بعد عام ١٩٦٣ ، إذا لاحظتم ، لم أعد أتكلم عن الدين كثيراً وصرت أركز أكثر على الأوضاع الاجتماعية الراهنة وعلى الأمور السياسية . ابتعدت كلية عن الحديث عن الأخلاق . والسبب في ذلك هو حدوث شيء هز ثقتي لا أستطيع وصفه تماماً . اكتشفت أن إلايْجا محمد نفسه قد خان المسلمين .

أود هنا أن أختصر هذا الموضوع على قدر ما أستطيع حتى يتفهم الناس موقفي وردة فعلي . أما السؤال عن هل أكشف عن ذلك أم لا ، فقد حل نفسه لأن الجمهور قد عرف . لاختصار الموضوع سأنقل لكم خبراً كما ظهر في الصحف التي نقلته من وكالات الأنباء وظهر في الراديو والتلفاز في كل أمريكا :

« لوس أنجلوس ، ٣ يولية ، يونايتد برس إنترناشنال .

« إلايْجا محمد ، ٦٧ عاماً ، قائد حركة المسلمين السود ، يواجه اليوم قضايا أبوة من اثنتين من سكرتيراته السابقات يتهمنه فيها بأبوة أطفالهن الأربعة ... الامرأتان في العشرينات من العمر ... مسز روزاري ومس ويليامز ، اتهمتا إلايْجا محمد بأنه كانت له مع كل منهن علاقات خاصة جداً منذ عام ١٩٥٧ حتى هذه السنة . قالت مسز روزاري أن له منها طفلين وثالثاً في الطريق ... المشتكية الثانية قالت أنه أب لابنتها » .

لقد كنت سمعت تلميحات في الماضي ترجع إلى عام ١٩٥٥ . ولكن صدقوني حينما أقول أن مجرد التفكير في أن شيئاً جنونياً مثل ذلك يمكن أن يحدث أو أي تلميح أو شك في أخلاقيات مستر محمد ، مجرد الفكرة كانت تكفي لأن تهزني من الخوف – ولذلك رفض عقلي تصديق أي شيء مثل تلك السخافة التي يذكر فيها اسم محمد مقروناً بالخيانة الزوجية في نفس واحد .

خيانة زوجية ! أي مسلم يرتكبها كان يفصل بدون تردد وفي خزي . إحدى الفضائح التي ظلت في طي الكتمان عندنا كانت أن سلسلة من سكرتيرات مستر محمد قد حملن وقدمن للمحاكمة أمام محكمة مسلمة فاعترفن بالزنا ووجدن مذنبات وحكم عليهن « بالعزل» لمدة سنة إلى خمس سنوات حيث لا يكون لأي منهن اتصال مع مسلم أو مسلمة أخرى.

لا شيء يشهد على عمق إيماني بمستر محمد أكثر من أنني كذبت عقلي وذكائي كلية وببساطة رفضت التصديق . لم أكن أرد أن « يحترق عقلي» كما احترق عقل أخي ريجنالد لتظننه في مستر محمد . آخر مرة رأيت فيها ريجنالد كان عندما دخل مطعم المسجد رقم سبعة . رأيته يدخل فذهبت إليه ونظرت في عينيه ثم

أخبرته أنه غير مرغوب فيه بين المسلمين فارتد على أعقابه وخرج . لقد فعلت ذلك لأخي وشقيقي لمجرد أن مستر محمد كان قد حكم عليه قبل سنوات « بالعزل » من كل المسلمين وكنت أعتبر نفسي مسلماً قبل أن أكون أخاً لريجنالد .

لا يستطيع أحد أن يقنعني أن مستر محمد سيخون كل تلك الثقة والتوقير الذي يكنه له كل هؤلاء المسلمين الفقراء الصادقين الذين يتبرعون من الملاليم التي تبقت لهم ويدعمون أمة الإسلام في إخلاص بينما هم بالكاد يستطيعون دفع إيجار أماكن سكنهم .

في نهاية ١٩٦٢ علمت أن عدداً من المسلمين هجر المسجد رقم اثنين في شيكاجو . بدأت الإشاعة القبيحة تنتشر بسرعة حتى بين غير المسلمين من الزنوج وعندما أفكر في أن الصحافة كانت تبحث عن الطرق التي بها تسيء إلى أمة الإسلام ، أرتجف من احتمال وصول مثل هذه الأخبار إلى آذان المخبرين بيضاً كانوا أم سوداً .

بدأت تنتابني الكوابيس ... رأيت العناوين البارزة في مخيلتي .

كان الخوف وهذه الأفكار تعاودني وأنا أحاضر في أرجاء أمريكا المختلفة . وكنت في كل مرة يقترب فيها مني صحفي أتخيله وهو يسأل : « هل صحيح ما نسمعه يا مستر مالكوم أن ... » وماذا كنت سأقول . وبطريقة ما لم أعترف لنفسي بالحقيقة في أية لحظة معينة بل وضعت غشاوة فوق عقلي لكي لا يقبل هذه الحقيقة البشعة حتى حينما بدأت أتعامل معها .

بدأ غير المسلمين الذين أعرفهم في كل من شيكاجو ونيويورك يخبروني بطريقة غير مباشرة عن ما سمعوه أو يسألونني إن كنت سمعت . كنت أتجاهل ذلك عمداً وأتظاهر بخلو ذهني من كل ذلك وإذا لم يذكروا لي القدر الذي يعرفونه ، أجد نفسي ممتناً لهم . كنت أستمر فيما أعمل علماً بأني قد أكون بدوت لهم غشيما تماماً وقد كنت فعلاً أشعر بأني غشيم أذ كيف لي أن أخرج كل يوم لأخطب في الناس وأعظ وهم يرون أني أجهل ما يحدث أمام عيني وفي داخل المنظمة التي أنتمي إليها ويتعلق بالشخص الذي كنت أكيل له الثناء . الشعور بالغشامة أيقظ في أحاسيس لم أشعر بمثلها منذ أيام الصعلكة في هارلم وأسوأ ما يمكن أن يحل بالصعلوك الأزعر هو أن يشعر أن شخصاً خدعه .

على سبيل المثال ذكر لي الكوميديان ديك جريجوري في كواليس مسرح أبوللو ذات ليلة . « يا رجل ، محمد ليس سوى ... » لن أذكر الكلمة التي استعملها . بام ! بتلك الطريقة . حاولت بفطرتي المسلمة أن أهاجم ديك جريجوري ولكنني بدلاً من ذلك شعرت بضعف وخواء داخلي ويظهر أن ديك شعر بانزعاجي مما قال فغير موضوع الحديث . كنت أعرف ديك معرفة جيدة فهو من شيكاجو ويفهم لغة

الشوارع ويتحدث بصراحة تامة . أردت أن أستحلفه ألا يعيد ما قاله لي أمام شخص آخر ولكني لم أستطع لأن في ذلك اعترافاً مني بما حدث .

الكلمات أعجز من أن تصف العذاب النفسي الذي كان يمزقني .

كالعادة عند الملمات ، ركبت أول طائرة لزيارة مستر محمد . لقد أحياني من بعد موت محقق والفضل له في كل ما له قيمة في شخصي . شعرت أنه مهما كانت الأمور فلن أقدر على خذلانه .

الشخص الوحيد الذي كان يمكنني اللجوء إليه بهذه المشكلة لم يكن سوى مستر محمد شخصياً وذلك ما حدث في النهاية ولكنني ذهبت أولاً إلى شيكاجو لمقابلة ابن مستر محمد قبل الأصغر ، والاس محمد . كنت أشعر أنه أكثر أبناء مستر محمد روحانية وموضوعية كما كنا أنا ووالاس نتبادل الثقة والقرب من بعض . لما رآني والاس وعرف السبب الذي أتيت من أجله . أخبرني بأنه يدري بذلك وعندما قلت له أن علينا أن نتحد للدفاع عن والده أخبرني أنه لا يعتقد أن أباه سيرحب بأي محاولة لمساعدته وقلت في نفسي أن والاس لابد أن يكون مجنوناً .

بعد ذلك كسرت القاعدة التي تمنع أي مسلم من الاتصال بمسلم آخر في حالة «عزل» وبحثت عن سكرتيرات مستر محمد السابقات واتصلت بهن ومن أفواههن سمعت القصة عن أب أطفالهن الحقيقي . من أفواههن سمعت ما قاله لهن إلايْجا محمد من أنني أفضل وأعظم منستر لديه لكنني سأهجره يوماً وأنقلب عليه ولذلك فإنني « خطر». علمت من أولئك السكرتيرات السابقات أن مستر محمد كان يثني عليَّ في حضوري ولكنه يغتابني وينهش لحمي في غيابي .

تألمت لذلك كثيراً .

وفي كل يوم كنت أواجه المكبرات والكاميرات والمخبرين والالتزامات الأخرى بمن فيهم مسلمي المسجد رقم سبعة وأشعر وكأني فقدت عقلي .

أخيراً اتضحت الأمور أمام ناظري . شعرت أنني إذا لم أفعل شيئاً فكأنني خائن للأمانة وأن بقائي ساكناً لم يكن ليساعد مستر محمد بينما هو في أشد الحاجة لمن يقف إلى جانبه . لذلك قمت ذات ليلة بكتابة خطاب لمستر محمد عن السموم التي تثار حوله . اتصل بي في نيويورك وأخبرني أنه سيناقش ذلك الأمر معي حينما يقابلني.

كنت في أشد الحاجة إلى إيجاد وسيلة ما يمكن من خلالها إنقاذ أمة الإسلام من تحطيم نفسها . كانت ثقتي كبيرة في أمة الإسلام فلسنا مجموعة زنوج مسيحيين ترقص وتصرخ وكلها ذنوب . فكرت في وسيلة يمكن استخدامها إذا ما انكشف ذلك الأمر الرهيب . يمكننا تلقين المسلمين المخلصين أن إنجازات الفرد

في حياته تسمو فوق ضعفه الشخصي والبشري . ساعدني والاس محمد في مراجعة القرآن والإنجيل لتأكيد ذلك وأن خيانة ديفيد الزوجية مع بلقيس لا تزن شيئاً أمام التاريخ عند مقارنتها بانتصاره على غوليات وأننا عندما نفكر في لوط لا نتذكر سفاح القربى بل نفكر بإنقاذه لاتباعه من خراب سدوم وعمورية . أما صورة نوح في أذهاننا فهي ليست صورته في حالة سكر بل صورته وهو يبني سفينته ويحذر الناس من الفيضان العارم القادم وصورة موسى في أذهاننا ليست صورة من سيأتي الأثيوبيات بل صورته وهو يقود اليهود من الأسر . في كل تلك الحالات تغلبت الإيجابيات على السلبيات.

بدأت أعظ المصلين في مسجد نيويورك رقم سبعة أن إنجازات الفرد الإيجابية في حياته ترجح كفته فوق نقط ضعفه البشرية والشخصية وأن الأفعال الخيرة تثقل موازينه فوق الأفعال السيئة . لم أعد أذكر المواضيع المألوفة مثل الزنا والخيانة الزوجية والأفعال غير الأخلاقية.

وبمعجزة ما لم يصل من حديث الزنا الذي انتشر في شيكاجو إلا القليل إلى بوسطن أو ديترويت أو نيويورك ويبدو أنه لم يصل إلى بقية مساجدنا في أنحاء القطر المختلفة . في شيكاجو كانت أعداد متزايدة تهجر المسجد رقم اثنين كما سمعت . كذلك بدأ كثير من المتعاطفين معنا من غير المسلمين يهاجموننا بالمفتوح . وفي فبراير ١٩٦٣ عندما أشرفت على حفل التخريج في جامعة الإسلام كنت أشعر ببرودة استقبال المسلمين حينما أقدم للحضور بعض أعضاء أسرة محمد .

طرت إلى فينكس بناءً على طلب مستر محمد في أبريل ١٩٦٣ .

تعانقنا كالعادة ثم أخذني مباشرة للتمشي خارج الغرف وحول حوض السباحة الذي بمنزله .

كنت أمام « المبعوث » ، أنا الذي كنت مجرماً منحطاً قاسياً ، شريراً إلى درجة أن أسماني السجناء « الشيطان». هذا الرجل أنقذني . هذا الرجل تعهدني وعلمني ورعاني وكأنما أنا من لحمه ودمه . أعطاني هذا الرجل جناحين أطير بهما إلى أي مكان وأفعل أشياءً ما كنت لأحلم بها أبداً . تمشينا قليلاً وأنا تعصف بي العواطف .

« نعم ، بني ، ماذا يجول بذهنك ؟» بادرني مستر محمد بذلك . ببساطة وصراحة ووضوح أخبرت مستر محمد عما يقال ومن غير انتظار لرده أضفت إنني وابنه والاس وجدنا في القرآن والإنجيل ما يمكن أن نلقنه للمسلمين – إذا ما دعت الضرورة – كتحقيق للنبوءة .

رد مستر محمد قائلاً : « لا يدهشني ذلك منك يا بني فقد كنت دائماً تفهم معي النبوءة والأمور الروحية . أنك تعي أن كل ذلك لم يكن إلا تحقيقاً للنبوءة . إن لك من الوعي والحكمة ما لا يتيسر إلا لرجل طاعن في السن.»

تذكرت كيف أنه عندما يقترب الوباء من بلدة يتلقى أهلوها تطعيماً بقليل من نفس جرثومة ذلك الوباء الشيء الذي يهيئهم لمقاومة ذلك الفيروس . لذلك قررت اختيار ستة من بين قيادي أمة الإسلام في الساحل الشرقي لتهيئتهم . أعلمتهم بالأمر ثم أخبرتهم بسبب اختياري لهم وأنني رأيت أنهم لا ينبغي أن يفاجئوا ويصدموا إذا ما طلب إليهم تلقين المسلمين في مساجدهم أن كل ذلك ليس إلا « تحقيقاً للنبوءة ». وجدت أن بعضهم قد سمع مسبقاً بالأمر وأن أحدهم ، منستر لويس اكس من بوسطن ، قد سمع بذلك قبل سبعة أشهر ، وكانوا يعانون من تلك المعضلة ويعيشون ذلك التناقض .

لم يخطر ببالي أبداً أن المسئولين في شيكاجو سيجعلون الأمر يظهر وكأنني أزيد النار اشتعالاً بدلاً من أن أطفئها . وبدأ أعداد المسرح بحيث تلتف الأنظار بعيدة عن الوباء وتتركز على شخصي بدلاً من ذلك .

أصبح الحقد عليَّ راية يلتف من حولها ضعيفو الإيمان . كذلك بدأ معارفي من الزنوج المسلمين الذين يعرفونني عن قرب وبعض الصحفيين البيض الذين كنت على اتصال منتظم بهم ، بدأوا يقولون لي في كل مرة يقابلونني فيها : « يبدو عليك الإرهاق ، إنك بحاجة إلى الراحة يا مالكوم إكس » .

لم يكن يدر بخلدهم ذرة مما يدور برأسي ومنذ أن أصبحت مسلماً ، كانت تلك أول مرة يتحدث معي فيها أبيض بطريقة شخصية . كنت أحس أن بعضهم كان مخلصاً وصادقاً . أحد هؤلاء ولن أبوح باسمه خوفاً من أن يفقد مركزه بذلك قال لي : « مالكوم أن البيض بحاجة إلى سماع ما تقول أكثر من الزنوج » أتذكر قولته تلك بوضوح لأنها كانت أول مرة منذ أن أصبحت مسلماً ، أتحدث فيها مع شخص أبيض لفترة من الزمن عن أي شيء سوى أمة الإسلام ونضال الرجل الأسود في أمريكا اليوم .

ولا أذكر لِمَ وكيف أنه ذكر عرضاً لفائف البحر الميت فرددت عليه قائلاً : « تلك الوثائق ستنزع المسيح من على زجاج النوافذ الملون واللوحات الجصية على الجدران وتعيده إلى قلب التاريخ كشخص غير أبيض مثلما كان حقيقة. » ذهل الصحفي فواصلت قائلاً أن لفائف البحر الميت تلك ستؤكد أن المسيح كان عضواً في جماعة عرافين مصرية تسمى الأصانص (الخلاصة) وهي حقيقة يعرفها مسبقاً فيلو المؤرخ المصري المشهور لعصر المسيح . ثم استمررنا أنا وذلك الصحفي في الحديث لمدة ساعتين عن التاريخ والدين وعلم الآثار .

كان حديثاً ممتعاً أنساني قلقي ومخاوفي لبعض الوقت . أذكر أننا اتفقنا في نهاية الحديث أنه في سنة ٢٠٠٠ سيدرس كل طفل اللون الحقيقي لعظماء الزمن الغابر .

ذكرت لكم أنني كنت أتوقع العناوين البارزة في الصحف في أية لحظة ولكني

لم أتوقع النوع الذي ظهر . لست بحاجة لأذكركم باسم من تم اغتياله في مدينة دالاس بولاية تكساس في الثاني والعشرين من نوفمبر عام ١٩٦٣ .

بعد ساعات من ذلك الاغتيال ، وصدقوني أنني أقول الحقيقة ، تسلم كل منستر مسلم أمراً من إلايْجا محمد – أمرين على الأصح . طلب من كل منستر ألا يدلي بأي تعليق عن الاغتيال وإذا ضايقهم الصحفيون فكل ما على المنستر أن يقوله هو : « لا تعليق » .

في ثلاثة الأيام التالية لم يكن هنالك من حديث سوى الرئيس المغتال . وكان المفترض أن يتحدث مستر محمد أمام جمع من وسط منهاتن بمدينة نيويورك في دعوة محددة مسبقاً فألغى مستر محمد ذلك الموعد وبما أنه لم يكن ممكناً استرجاع ثمن استئجار القاعة ، طلب مستر محمد مني أن أتحدث نيابة عنه ومن ثم تحدثت في مكانه .

مرات كثيرة بعد ذلك رجعت إلى النقاط التي كتبتها لألقيها ذلك اليوم وكنت قد حضرتها قبل أسبوع من الاغتيال . كان عنوان المحاضرة « حكم الله على أمريكا البيضاء » وهي على النهج الذي صار مألوفاً لدي « ستحصد ما تبذر » وعن كيف يجني الرجل الأبيض المنافق ثمار ما حرث .

بعد ذلك بدأت فترة النقاش وكان من المحتم أن يسألني أحدهم ، « كيف ترى اغتيال الرئيس كندي ؟ ما رأيك في ذلك ؟ » .

من غير تفكير قلت بصراحة ما أشعر به وأنها حالة من نوع « العرجاء رجعت لمراحها ». قلت لهم :إن البغض الذي زرعه الرجل الأبيض لم يقف عند قتل السود العزل بل أن ذلك البغض تُرك بلا ضوابط وأخيراً طال رئيس هذا البلد وأن ذلك تكرار لما حدث لمدجار ايفانز وباتريس لومبا ولزوج مدام نو .

في اليوم التالي ظهرت العناوين البارزة في الصحف والإعلام وهي تقول : «مالكوم اكس المسلمين السود يقول : « رجعت العرجاء لمراحها ».

أشعر بالإرهاق وأنا أفكر في كل ذلك الآن . في كل أنحاء أمريكا وفي كل أرجاء العالم كان بعض الزعماء العالميين يقولون بطرق مختلفة أن جو الحقد في أمريكا هو المسئول عن موت الرئيس الأمريكي . ولكن عندما يقول مالكوم اكس ذلك يصبح الأمر شيئاً شاذاً .

كان ميعاد زيارتي الشهرية لمستر محمد في اليوم التالي وأنا في الطائرة إليه حدثتني نفسي بأن أتوقع حدوث شيء . لقد كنت دائماً أحدس ما سيحدث .

تعانقنا أنا ومستر محمد محيين بعضنا البعض وشعرت وقتها بأن ترحابه يفتقد عنصراً ما ثم شعرت بتوتر فجائي وذلك مهم بالنسبة إليَّ . لسنوات عديدة كنت أفخر بصلتي الوثيقة بمستر محمد التي كانت تجعلني أحس بما يحس به . إذا كان متوتر

الأعصاب انتقلت العدوى إليَّ وإذا كنت هادئ البال فذلك يعني أنه هادئ البال .

والآن ها أنا ذا أشعر بتوتر .

تحدثنا في البداية ونحن في غرفة جلوسه عن أشياء أخرى ثم سألني « هل رأيت صحف الصباح ؟ »

أجبت : « نعم ، سيدي ، رأيتها ».

رد قائلاً : « لقد كان ذلك تصريحاً سيئاً فالبلد كلها تحب هذا الرجل والكل الآن في حالة حداد . كان التوقيت سيئاً فتصريح مثل هذا يضر بالمسلمين ».

ثم وكأنما صوت آت من بعيد ، سمعت كلماته : « سأضطر إلى إسكاتك لمدة التسعين يوماً التالية حتى لا يقترن هذا التصريح في أذهان الناس بالمسلمين في كل مكان ».

فقدت الحس من تلك الجملة .

لكنني تابع لمستر محمد وقد كنت أقول لمساعدي كثيراً أن الذين هم في وضع يطلبون فيه من الآخرين الانضباط عليهم قبول الانضباط أنفسهم .

أجبت مستر محمد : « إنني أتفق معك يا سيدي وسأخضع لمشيئتك مائة بالمائة ».

عدت على جناح الطائرة لنيويورك وأنا متهيئ نفسيًّا لأن أقول لمساعدي في المسجد رقم سبعة أنني قد عُلقت عضويتي – أو « تم إسكاتي. » ولكني اندهشت إذ علمت عند وصولي أن مساعدي كانوا يعرفون مسبقاً .

ما أدهشني أكثر هو أن برقية بذلك أُرسلت لكل صحيفة ومحطة إذاعة وتلفاز في نيويورك . كانت تلك أسرع مهمة دعائية ، وأكثرهن إتقاناً ، بادر بها مسئولو شيكاجو .

بدأ الهاتف يرن في كل مكان أوجد فيه . من لندن وباريس ، من الأسوشيتد برس ومن اليونايتد برس . كانت كل محطات الراديو وشبكات التلفاز وكل الصحف تحاول الاتصال بي . قلت لهم جميعاً : « لقد خالفت أوامر مستر محمد وأنا الآن خاضع تماماً لحكمته . نعم ، أتوقع أن أتحدث إليهم بعد تسعين يوماً ».

« إسكات مالكوم إكس.» أصبح عنواناً بارزاً في الصحف .

كان أكثر ما يقلقني هو أنه لو حدثت فضيحة لأمة الإسلام في التسعين يوماً ستكون فاهي مكممة بينما أنا أقدر مسلم على التعامل مع الإعلام الذي سيضخم أية فضيحة تحدث داخل الأمة . نما إلى علمي في اليوم التالي أن إسكاتي كان تامًّا بأكثر مما توقعت . لم يكن محرماً عليَّ الكلام مع الصحافة فحسب بل مُنعت حتى من القيام بالوعظ والتدريس في مسجدنا رقم سبعة . بعد ذلك صدر وعمم إعلان في كل أوساط

أمة الإسلام أنني سأعود إلى وضعي خلال تسعين يوماً « إذا خنع» .

تسرب إليَّ الشك في الأمر – لأول مرة . لقد خضعت خضوعاً تاماً ومع ذلك وعن عمد كان بعضهم يوحي بأنني ثرت على محمد . لم أجب الشوارع سنوات بغير فائدة وأدركت أن فخاً قد نصب لي . بعد ثلاثة أيام نما إلى علمي أن أحد مسئولي المسجد رقم سبعة والذي كان يليني مباشرة كان يقول لبعض الأخوة أعضاء المسجد رقم سبعة : « لو علمتم ما أتاه هذا المنستر لذهبتم وقتلتموه بأيديكم».

عند ذلك أدركت كما سيدرك أي مسئول في أمة الإسلام أن المصادقة ، إن لم تكن المبادرة ، على قتلي قد صدرت من شخص واحد فقط .

شعرت بالدوار وكأنني أنزف دماً في الداخل . شعرت أن دماغي سينفجر فذهبت لمقابلة الدكتورة ليونا تيرنر ، التي كانت طبيبة الأسرة لعدة سنوات ، في مكتبها في مدينة لونج آيلاند وطلبت منها أن تفحص دماغي . فحصتني ثم أخبرتني أنني أنوء بحمل شديد وأنني في حاجة إلى الراحة .

علاقتي مع كاسياس كلاي (محمد علي) اليوم ليست لصيقة كسابق عهدها ولكني ممتن له كثيراً لأنه دعانا في ذلك الوقت بالذات ، أنا وبتي والأطفال ، لننزل ضيوفا عنده أثناء مرانه في ميامي استعداداً لملاقاة سوني لستون ، وذلك كهدية منه في عيد زواجنا السادس أنا وبتي .

كنت قد قابلت كاسياس كلاي لأول مرة في ديترويت في عام ١٩٦٢ عندما حضر مع أخيه رودلف ودخلا المطعم الطلابي المجاور لمسجد ديترويت حيث كان سيتحدث فيه إلايْجا محمد أمام حشد كبير بعد لحظات من دخولهم المطعم . أعجب كل مسلم من الحاضرين بمظهر الأخوين الملاكمين ونقاء وأناقة مظهرهم . تقدم كاسياس نحوي وقبض على يدي بشدة كما فعل أمام العالم قائلاً « أنا كاسياس كلاي» وكأنما مفروض عليَّ أن أعرفه فمثلت وكأني أعرفه . حقيقة لم أكن حتى تلك اللحظة قد سمعت به . لقد كنا من عالمين مختلفين وقد أمرنا إلايْجا محمد أن نبتعد عن كل أنواع الرياضة .

أثناء حديث إلايْجا محمد كان كاسياس وأخوه عملياً يقودان التصفيق مما زاد إعجاب المسلمين بصدقه حيث أن اجتماعات المسلمين آخر مكان في العالم يبحث فيه ملاكم عن المعجبين .

بعد ذلك كنت أسمع عن كيف كان كاسياس يزور مساجد المسلمين ومطاعمهم في المدن المختلفة وإذا كنت أخاطب جماعة في مدينة يكون هو قريباً منها يحضر على الفور . أحببته . كانت له صفة ما حببته إليَّ وجعلته واحداً من القلائل الذين دعوتهم إلى منزلي على الإطلاق . أحبته بتي أيضاً وتعلق الأطفال به . كان

كاسياس ببساطة شابًا محبوباً ، صدوقاً ، نظيفاً ومتواضعاً . لاحظت وعيه واهتمامه بالتفاصيل . شككت أن هنالك خطة وراء تهريجه أمام الجماهير . شككت ، فأكد لي هو أنه يفعل ما يستطيع ليهزم سوني ليستون نفسياً حتى يحضر ليستون إلى الحلقة وكله غضب واستياء وزيادة في الثقة بالنفس تجعله يهمل التدريب ، متوقعاً أن المباراة ستكون من جولة واحدة ينهيها هو بالضربة الساحقة . لم يكن كاسياس يستجيب للنصح فحسب بل كان يسعى إليه . وما أكدته له أساساً هو أن نجاح أية شخصية عامة يعتمد على معرفتها بطبيعة ودوافع الناس الذين يحومون حولها . حذرته من الفتيات الجميلات الجريئات صغيرات السن اللائي كن يجرين خلفه أو « الثعالب » كما كان يسميهن هو . قلت له أنهن لسن « ثعلبات » بل ذئاب .

تلك كانت أول أجازة لبتي منذ أن تزوجنا – أما بناتي الصغيرات فقد كن يقصفن ويلعبن مع الطامح ببطولة الملاكمة . لا أدري ماذا كنت سأفعل في تلك الفترة الحرجة من حياتي لو كنت قضيتها في نيويورك تحيط بي الهواتف التي لا تفتأ ترن والصحف وكل أولئك الناس ما بين شامت ومتعاطف ومستفسر عن المستقبل .

كانت صدمة نفسية قاسية . كنت كشخص سعيد في زواجه لم يفترق عن زوجه لمدة اثنى عشر عاماً وفجأة في الصباح وعند الإفطار رمى إليه شريك حياته بأوراق الطلاق على المائدة .

شعرت وكأن شيئًا في الطبيعة توقف عن أداء دوره كأن تتعطل الشمس أو النجوم . كأن شيئاً لا يصدق ، شيء أكبر مما يتخيل أي عقل . لا أبرئ نفسي ، فقد كنت في معسكر كاسياس كلاي وفيما بين فندق هامبتون حيث كنا ننزل ، أتحدث مع زوجتي والآخرين وأقول كلمات لا تعني شيئاً بالنسبة لي . كان حديثي يأتي من ركن صغير في عقلي أما بقية عقلي فقد كانت تموج بألف منظر ومنظر من السنوات الاثنتي عشر السابقة ... صور من مساجد المسلمين .. صور مع مستر محمد ... صور مع عائلته ... مناظر مع مسلمين أفراد ، معهم كجمهور مستمع وفي المناسبات الاجتماعية ... وصور البيض وسط المستمعين والصحفيين .

أتكلم ، أتمشى وأواصل الحياة . في معسكر كاسياس كلاي كررت للكتاب الرياضيين ما بدأت أدرك داخليا أنه مجرد كذبة ، كذبة أعادتي لوضعي السابق في غضون تسعين يوماً . لكنني لم أكن تهيأت نفسياً بعد لقبول الحقيقة : حقيقة أنني وأمة الإسلام انفصلنا عضويًا . وهل تدرك ما أرمي إليه ؟ عندما يوافق القاضي على الطلاق فذلك يمنح الزوجين الانفصال الجسدي ولكن إذا كان أحد الزوجين أو كلاهما لصيقاً بالآخر فإن الأمر قد يقتضي عدة سنوات قبل أن يحدث الانفصال النفسي .

ولكني في انفصالي العضوي هذا لم يكن بإمكاني التهرب من خطط وإستراتيجية أولئك في شيكاجو الذين يدبرون لزحزحتي من أمة الإسلام وربما من هذا العالم . شعرت بأنني أرى خيوط المؤامرة .

كل مسلم بإمكانه أن يدرك أن جملة « عادت العرجاء إلى مراحها» لم تكن إلا سبباً واهياً ومطية استغلت لوضع خطتهم لزحزحتي موضع التنفيذ . لقد تمت الخطوة الأولى في الخطة : أعطى المسلمون الانطباع بأنني ثرت على مستر محمد . أستطيع الآن أن أتنبأ بالخطوة التالية : أظل « معلقاً » ثم « معزولاً » بعد ذلك إلى ما شاءوا والخطوة الثالثة ستكون استفزار مسلم جاهل يأخذ على نفسه عهداً بقتلي كواجب ديني – أو عزلي تدريجيًا حتى أختفي من المسرح العام .

الشخص الوحيد الذي كنت أعرفه حقاً كان زوجي . لم أكن قبلها أحلم أنني سألجأ يوماً إلى قوة إرادة امرأة مثلما أتكأت أنا على قوة عزيمة بتي . لم نكن نتبادل الحديث كثيراً ، بتي لم تكن تقل شيئاً إذ أنها كانت زوجة من النوع عميق الفهم ولكنني كنت أشعر بشقائها لشقائي . كنت أدرك أنها عبد مخلص لربه مثلي وأنها ستكون بجانبي دائماً .

لم أكن أخاف الموت فقد كنت في كل لحظة من سنواتي الاثنتي عشر مع مستر محمد مستعداً لأن ألقي بحياتي دفاعاً عنه .

ما ساءني أكثر من الموت هو الخيانة . أستطيع تخيل الموت لكنني لا أستطيع تصور الخيانة – لا ، ليس بعد ذلك الإخلاص في خدمة أمة الإسلام ومستر محمد . في تلك السنوات الاثنتي عشر لو حدث وحكم على محمد بالقتل في جريمة مدنية كنت سأقول للمحكمة أنا الفاعل الحقيقي وأحاول أن أبرهن ذلك لأنقذ حياته وكنت سأجلس على الكرسي الكهربائي كخادمه المطيع .

وأنا هناك ، في معسكر كاسياس كلاي ، حاولت جهدي أن أطرد من رأسي التفكير في متاعبي وأن أفكر في متاعب أمة الإسلام . دخلت في صراع نفسي محاولاً إقناع نفسي أن مستر محمد أنما كان يحقق النبوءة لأنني كنت فعلاً أؤمن أن مستر محمد إن لم يكن هو الإله فهو يأتي بعد الإله .

لكن ما هزَّ ثقتي وإيماني به هو أنني مهما حاولت ، لم أستطع أن أخفي من نفسي أو أن أتهرب من حقيقة أن مستر محمد بدلاً من أن يواجه أتباعه بما فعل ويعترف بضعفه كبشر أو يقول :إن تلك نبوءة تحققت الشيء الذي كنت أؤمن مخلصاً أن المسلمين سيتفهمونه على الأقل بدلاً من ذلك كان مستر محمد على استعداد لأن يخفي الحقيقة ويحجبها عن الناس .

تلك كانت ضربة ساحقة .

تلك كانت المرة الأولى التي اكتشفت فيها أنني كنت أؤمن بمستر محمد أكثر من إيمانه بنفسه .

تلك كانت الطريقة التي بها ولأول مرة بعد اثنى عشر عاماً ، لم أفكر فيها في نفسي ولو لخمس دقائق ، أصبحت أخيراً قادراً على لملمة قواي وأعصابي لأواجه الحقائق وأفكر باستقلالية.

بعد فترة وجيزة تركت فلوريدا عائداً ببتي والأطفال إلى منزلنا في لونج آيلاند . علمت بعد ذلك أن مسئولي المسلمين في شيكاجو استاءوا أكثر من قراءة أخبار زيارتي لكاسياس في الصحف . كانوا يشعرون أن كاسياس لم تكن أمامه أدنى فرصة للفوز وأن زيارتي له ستربط كاسياس كلاي بأمة الإسلام في أذهان الناس ويحرجها بذلك (لا أدري إن كان البطل يهمه أن يعلم اليوم أن أغلب الصحف الأمريكية كانت ممثلة في معسكر كاسياس التدريبي ما عدا صحيفة محمد يتكلم . بالرغم من أن كاسياس كان من إخوتهم المسلمين لم تر الصحيفة في صراعه على البطولة ما يستحق النشر) .

طرت عائداً إلى ميامي وأنا أحس أن إرادة الله قادتني إلى مساعدة كاسياس لينتصر ويبرهن للعالم على عظمة الإسلام من خلال انتصار العقل على الجسم والقوة العضلية .

لست بحاجة لتذكيركم كيف سخر الناس في البداية من كاسياس كلاي وهجومه على ليستون .

هذه المرة أحضرت معي من نيويورك صوراً فوتوغرافية لفلويد باترسون وسوني ليستون في ملاكماتهم السابقة بجانبهم قساوسة بيض « كناصحيهم الروحيين » لم يكن كاسياس كلاي بوصفه مسلماً بحاجة لتذكيره بما فعلته المسيحية البيضاء بالرجل الأمريكي الأسود . قلت لكاسياس « هذا هو الوجه الحق . الهلال مع الصليب يتصارعان داخل الحلبة لأول مرة . المسلم مع المسيحي يتواجهان والتلفاز يرسلها عبر التلستار ليراها كل العالم في لحظتها. » قلت له : « هل تعتقد أن الله فعل كل ذلك ليتركك تغادر الحلبة بدون أن تكون البطل؟» (قد تذكرون أن كاسياس كان يهتف عند أخذ وزن الملاكمين بأشياء مثل : « لقد تنبئ لي بالنجاح ولن يستطيع أحد هزيمتي»).

جعل رجال لستون ومستشارهُ ، جعلوه يتدرب ليصارع من أجل « الاندماج » أكثر من أن يتدرب لهزيمة كاسياس كلاي . تمكن لستون أخيراً من أن يؤجر منزلاً كبيراً فخماً في منطقة أغنياء بيض تماماً ولإعطائك فكرة عن ذلك كان جاره

الذي يملك البيت المجاور صاحب فريق نيويورك يانكيز ، دان توينج . كنا عندما نتمشى في أول المساء أنا وكاسياس أحياناً حيث يسكن الزنوج ، يفغرون أفواههم من الدهشة وهم يرونه بينهم بدلاً من أن يكون وسط البيض كما يفضل أغلب الأبطال السود . المرة بعد المرة أدهشهم كاسياس بقوله لهم : « أنتم أهلي وأنا استمد قوتي من بقائي وسط أهلي السود. »

ما كان سيواجه سوني لستون هو صراع من أصعب الصراعات التي يواجهها الإنسان ، صراع ضد من يعبد الله ولا يخاف من بشر إطلاقاً .

ومن بين ثمانية آلاف مقعد في قاعة مؤتمرات ميامي وضعوني في المقعد رقم سبعة . ذلك الرقم كان رقمي المفضل دائماً تبعني في كل حياتي ففسرت ذلك بأنها إشارة من الله لتطمأنني على فوز كاسياس . ومع قلقي على كاسياس كنت أكثر قلقاً على ما سيحدث لأخيه رودلف الذي كان يلاكم في أول مباراة له كمحترف .

بينما كان رودلف يكسب مباراة من أربع جولات ضد زنجي من فلوريدا يدعى «تشيب » جونسون ، كان كاسياس يقف في مؤخرة الاستاد يتفرج بهدوء وهو يرتدي بذلة توكسيدو . بعد شهور من الصراخ والثرثرة وبعد التمثيلية التي أداها عند الوزن ، كان على كتاب الرياضة الذين تنبأوا بذبحه ، أن يفهموا شيئاً من ذلك الصمت .

ثم اختفى كاسياس ليرتدي زي المباراة لمقابلة لستون . ذهبت وانضمت إليه في صلاة صامتة لله سائلينه أن يبارك في مجهودات كاسياس . أخيراً دخل هو ولستون إلى أماكنهم في الحلبة وجلست أنا على مقعدي مربعاً يدي متصنعاً الهدوء قدر الإمكان حتى لا تفاجئني كاميرات التلفاز وأنا أصرخ كالأبله في مباراة البطولة .

باستثناء المادة الكيماوية الغريبة التي غشت عيني كاسياس مؤقتًا في الجولتين الرابعة والخامسة ، استمرت المباراة وفقا للخطة التي وضعها . تفادى كاسياس ضربات لستون القوية وبدأ لستون يشعر بالإرهاق آلياً بعد الجولة السادسة لأنهم هيأوه ودربوه على أنه لابد فائز في جولتين فقط . يئس لستون وانهزم . كان سر أكبر هزيمة غير متوقعة في التاريخ هو أن كاسياس قد فاق لستون باستعمال عقله في التفكير قبل المباراة .

لا أظن أنه كانت هنالك حفلة انتصار للبطل الجديد أهدأ من التي أقمناها . حضر ملك الحلبة ذو الوجه الطفولي إلى غرفتي في الفندق . أكل البوظة وشرب اللبن ثم تحدث مع نجم كرة القدم (الأمريكية) الأسود جيمي براون وبعض الأصدقاء الآخرين وبعض الصحفيين . غلب النعاس البطل فأخذته إغفاءة على سريري ثم استيقظ من النوم وعاد إلى غرفته .

في صباح اليوم التالي وقبل دقائق من المؤتمر الصحفي الذي أعلن عنه كاسياس ،

تناولنا طعام الإفطار سويًا . في ذلك المؤتمر أعلن كاسياس خبراً ، نشر عنواناً بارزاً في الصحف العالمية أنه « مسلم أسود » .

ولكن دعوني أقول لكم شيئاً عن ذلك . أن كاسياس لم يعلن أبداً أنه عضو في منظمة « مسلمين سود » وإنما خلص المخبرون إلى ذلك بأنفسهم من حديثه الذي قال فيه : «أنني أؤمن بدين الإسلام وذلك يعني أنني أؤمن بألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ذلكم هو نفس الدين الذي يؤمن به سبعمائة مليون ملون في أفريقيا وآسيا».

في كل الضجة التي تلت ذلك الإعلان لم يكن هنالك أسخف من إعلان فلويد باترسون أنه كشخص كاثوليكي يود أن يلاكم كاسياس كلاي لينقذ بطولة الوزن الثقيل من براثن المسلمين . كان مثالاً محزناً لأسود مسيحي مغسول الدماغ على استعداد لأن يحارب باسم الرجل الأبيض الذي لا يعيره التفاتاً . بعد ثلاثة أسابيع من ذلك كتبت الصحف أن باترسون عرض منزله في يونكرز بولاية نيويورك للبيع بمبلغ ١٢٠٠٠٠ دولار وبخسارة ٢٠٠٠٠ دولار . لقد سكن في حي للبيض فجعلوا حياته تعسة . لم يرحب به أحد من السكان بل كان أطفالهم ينادون أطفال باترسون « بالنيجرز» كما أن أحد الجيران درب كلبه ليدنس منزل باترسون وأقام جار آخر حاجزا ليحجب الزنوج عن الأنظار . أخبر باترسون الصحفيين « لقد حاولت جهدي ولكن ذلك لم يجد ».

صدر أول أمر باغتيالي بواسطة واحد من مسئولي المسجد رقم سبعة الذي كان أحد مساعدي كما عُين أحد مساعدي المقربين أيضاً للقيام بتلك المهمة . كان من الأخوان الذين لديهم خبرة بالانفجارات فطلبوا إليه أن يربط سيارتي بأسلاك حتى تنفجر عند إدارة مفتاح التشغيل . لكن ذلك الأخ رأى من إخلاصي للأمة ما منعه من القيام بتلك المهمة وبدلاً من ذلك جاء إليَّ وأخبرني بما يضمرون . شكرته لإنقاذ حياتي وحكيت له حقيقة ما يدور في شيكاجو فكانت صدمته لا تصدق .

كان ذلك الأخ قريباً من دائرة بعض الأخوة الآخرين في المسجد رقم سبعة الذين قد يطلب إليهم التخلص مني فقال لي أنه أخذ عهداً على نفسه أن يوعي كل واحد منهم بما فيه الكفاية حتى لا يستغلهم الآخرون لذلك .

عندما بلغني صدور أول أمر مباشر بقتلي تم انفصالي نفسانياً عن أمة الإسلام .

بدأت أرى في كل مكان – في الشوارع وفي المتاجر ، في المصاعد والأرصفة وفي العربات المارة – وجوه مسلمين أعرفهم وأدرك أن أياً منهم ربما يكون يتحين الفرصة ليضع الرصاص في جسدي .

كاد عقلي أن ينفجر . ماذا أنا فاعل ؟ حياتي موثوقة بعروة لا تنفصل بكفاح الرجل الأسود في أمريكا . وكان يُنظر إليَّ كأحد « قادة » ذلك النضال . لقد

قضيت سنوات وأنا أهاجم « الزعماء السود » لتقصيرهم والآن صرت أسأل نفسي بصراحة ما عساي أستطيع أن أقدم ، ماذا يؤهلني حتى أساعد السود لينتصروا في كفاحهم من أجل حقوقهم الإنسانية . تعلمت من التجارب أن النجاح في قيادة أي تنظيم يتطلب تحليل الحقائق الباردة بطريقة حسابية بما فيها حقيقة نفسك .

كانت لدي ميزة معينة وهي أنني شخصية معروفة عالمياً وذلك شيء لا يشترى بالمال . كنت أدرك أنني إذا قلت شيئاً يستحق النشر سيقرأ عنه الناس ربما في كل بقاع الأرض اعتماداً على الشيء الذي أصرح به . وهنا في مدينة نيويورك كانت لي قاعدة كبيرة من الأتباع الشخصيين من غير المسلمين . لقد بدأت تلك القاعدة تتكون تدريجياً منذ ذلك اليوم الذي قدت فيه المسلمين في هارلم في تظاهرة درامية معارضة عندما ضرب رجال الشرطة الأخ هينتون . لقد رأى المئات وسمعت الألوف الأخرى من الزنوج في هارلم بعد ذلك كيف أننا برهنا عملياً أن كل شيء يمكن أن يتحقق إذا واجه السود الرجل الأبيض بدون خوف . لقد رأت كل هارلم بعد ذلك كيف كانت الشرطة تحترم المسلمين . (تلك كانت المرة التي قال فيها عني نائب مدير الشرطة داخل مركز الشرطة رقم ٢٨ « يجب ألا يسمح لأي رجل أن يكون له مثل ذلك النفوذ») .

مع مرور السنين تلقيت أكثر من دليل أن نسبة كبيرة من السود في مدينة نيويورك تستجيب لما أقول بمن فيهم عدد كبير ليس على استعداد لأن يقول ذلك علناً . على سبيل المثال كنت عندما أتحدث في تظاهرات الشوارع يقف لسماع حديثي أعداد تصل عشرة أضعاف أو أكثر مما تجدهم يستمعون لأي واحد ممن يسمون « بزعماء الزنوج» وأنا أدرك أن القائد الحقيقي في أي مجتمع هو الذي يحوز على ويستحق ثقة أتباعه وجماهيره فالأتباع الحقيقيون يأتون طوعاً ومن تلقاء أنفسهم وما ينقص كثير من « زعماء الزنوج» أصحاب الأسماء الكبيرة اليوم هو ضعف العلاقة بينهم وبين جماهير الجيتو . أنّى أن تكون لهم علاقة محبة مع الجماهير بينما هم يقضون جل وقتهم محاولين الاندماج مع البيض . كانت تلك الجماهير تعلم أنني لم أترك الجيتو روحياً أبداً ولم أتركه جسدياً أكثر مما هو ضروري . كان عندي حاسة الجيتو وكنت على سبيل المثال أحس بالتوتر متى ما فاق مستواه العادي بين جماهير الجيتو من المستمعين . كنت أتكلم وأفهم لغة الجيتو وهنالك مثال على ذلك يقفز إلى ذهني كلما سمعت واحداً من أصحاب الأسماء الكبيرة بين « زعماء الزنوج» يعلن أنه أنما « يتحدث » باسم السود سكان الجيتو .

بعد إحدى التظاهرات في شوارع هارلم كنا نتحدث أنا وأحد هؤلاء الزعماء عندما تقدم منا واحد من زعران هارلم لا أذكر إني رأيته قبلاً . قال لي : « هاي ، بيبي ، إنني معجب بكل هذه المناظر عند الخطوط ... إنني ذاهب لأضع بعض العنب

تحت خصيات اليهودي مقابل بريزة ... يجب أن أعطيكم دوراً ... القصار هنا يحاولون خطف بعض الخبز ... حسنا يا صديقي سأواصل السير لأني أريد أن أنقد قليلاً وأخطف بعض الزايات » قال ذلك واستمر في سيره في الشارع السابع .

لم أكن سأشغل نفسي بذلك لولا أنني لاحظت أن ذلك « الزعيم » الزنجي كان يقف ويحملق بغباء خلف ذلك الرجل وكأنما تحدث إليه باللغة السانسكريتية . طلب مني أن أشرح له ما قاله ذلك الأزعر ففعلت . ما قاله ذلك الأزعر كان كالآتي :

أنه يعلم أن المسلمين يقيمون سوقاً خيرياً أسود صرفاً في قصر روكلاند الذي هو أساساً قاعة للرقص وأنه ذاهب ليرهن بذلة له بعشرة دولارات ليحضر السوق الخيري وأنه لم يكن لديه مال كاف لكنه يحاول الحصول على بعض منه وأنه ذاهب ليأكل ثم ينام .

ما أريد أن أقول هو أنني « كزعيم » استطيع أن أتحدث في إيه. بي. سي. ، سي. بي. إس. أو. أن بي. سي. (شبكات التلفزيون القومية الثلاث) ، في جامعة هارفارد أو جامعة طسكيجي (للزنوج) ، مع زنوج ما تسمى « بالطبقة الوسطى » وزنوج الجيتو (الذين يتحدث عنهم الزعماء الآخرون بدلاً من التحدث معهم.) ولأنني عشت في الشوارع فأنا أدرك أكثر من أي أبيض ومن أي زعيم أسود تقريباً ، أن أكثر السود خطراً في أمريكا هم زعران الجيتوات .

ما الذي يجعلني أقول ذلك ؟ لأن الأزعر في غابة الجيتو أقل الزنوج احتراماً لمراكز القوة البيضاء وليس هنالك ما يكبح جماحه داخلياً إذ أنه لا دين له ولا يعرف معنى الأخلاق أو مسئولية المواطنة كما أنه لا يعرف الخوف أو أي شيء من ذلك . الصراع من أجل البقاء سيجعله دائماً يهاجم ويتصيد ضعف الآخرين كالحيوان . الأزعر في الجيتو دائما محبط ، قلق يتململ بحثاً عن نوع من « الحركة » ويعط لكل ما يقوم به كل ما لديه حتى حياته .

ما يجعل الأزعر أكثر خطورة هو صورته « الزاهية » التي يتطلع إليها تاركو المدارس من أبناء الجيتو . يرى مراهقو الجيتو أولئك آباءهم وهم يكابدون الجحيم لكي يصبحوا شيئاً في هذا المجتمع أو يرونهم وقد يئسوا من تحقيق أي شيء لأنفسهم في مجتمع الرجل الأبيض المتحامل الذي لا يحتملهم . يقرر مراهقو الجيتو حينها أنه من الخير لهم أن يصبحوا مثل ذلك الأزعر بلبسه المتأنق وهو يظهر المال الذي يحمله ولا يظهر أدنى احترام لأي شخص أو أي شيء . بذلك يندفع شباب الجيتو إلى عالم الزعران ، عالم المخدرات واللصوصية والبغاء والجريمة وعدم الأخلاق .

تملكني الخوف عندما رأيت خطورة ما سيأتي به هؤلاء المراهقون إذا ما أشعل

أحد ومضة العنف فيهم . في ظهر أحد أيام الصيف القائظة حضرت تظاهرة في هارلم أمها كثير من هؤلاء المراهقين وكان دعاني إلى الحضور بعض زعماء الزنوج « المسئولين» الذين عادة لا يتكلمون إليَّ ولكنهم استغلوا اسمي حتى يجتذبوا الجمهور . كنت كلما فكرت في ذلك كلما ازددت غيظا وعندما قمت إلى المنصة للحديث أخبرتهم بصراحة أنني غير مرغوب فيَّ في هذا المكان وأنهم استغلوا اسمي ثم غادرت منصة المتحدثين وتركت المكان .

حسناً ، لماذا فعلت ذلك ، لم ؟ لقد تضايق أولئك المراهقون الزنوج وبدأوا يتململون ويصرخون الشيء الذي تضايق منه كبارهم بين الجمهور . فجأة أقفل الجمهور الطرق في الاتجاهات الأربعة وبدأ مزاج الجمهور يتعكر بصورة قبيحة أقلقتني . طلعت على ظهر عربة وبدأت ألوح لهم طالباً الهدوء . هدأوا فطلبت إليهم الانصراف فانفضوا .

كان ذلك حينما بدأوا يقولون عني أنني الزنجي الوحيد في أمريكا الذي «يستطيع أن يوقف شغباً عنصريًّا أو يشعل آخر».

لا أدري إن كنت حقاً أستطيع ذلك ولكني تعلمت من ذلك في دقائق قليلة حجم النار الداخلية المكبوتة والجاهزة للاشتعال في قلوب الزعران ومعجبيهم من المراهقين الذين يسكنون في جيتوات الشمال حيث احتجزهم الرجل الأبيض لمائة سنة .

لقد أعطانا صيف عام ١٩٦٤ « الطويل اللاهب » في هارلم وفي روتشستر والمدن الأخرى، فكرة عما يمكن أن يحدث . مجرد فكرة ، ليس إلا . كل ذلك الشغب كان محبوساً في أماكن سكن الزنوج . ماذا لو قامت حادثة ما بإشعال الفتيل في هذه الجيتوات التي يغلي مرجلها من المرارة في كل أنحاء أمريكا فانفجرت بذلك خارج حدودها لتدخل أماكن سكن البيض ؟ دع السود المغضبين في مدينة نيويورك يخرجون من هارلم ويقطعون سنترال بارك وينتشرون من خلال النفق في شوارع ماديسون وليكسنجتون وبارك والشارع السابع . أو خذ الطرف الجنوبي في شيكاجو بأحيائها الأكثر قدماً وأكثر قذارة ، دع سكانها الزنوج يغمرون وسط البلد أو دع السود المتقيحين في واشنطن د. س. يهاجمون شارع بنسلفانيا (مقر البيت الأبيض). أما ديترويت فقد تراكم بها أكثر من مائة ألف أسود . تمعن في ذلك ! أذكر أي مدينة وستجد بها ديناميتاً أسود قابلاً للانفجار اجتماعيًّا . كليفلاند ، فيلادليفيا ، سان فرانسيسكو ولوس أنجلوس ... كلها تمور بغضب الرجل الأسود الذي يختمر في مرجله .

لقد تحولت عن الموضوع واسترسلت في سرد بعض الأحداث والوقائع التي علمتني أن أحترم الخطورة الكامنة في الجيتوات . كنت أحاول أن أوضح بأمانة تقييمي لقدراتي التي تؤهلني لأن أقدم نفسي « كقيادي » مستقل بين السود . في النهاية رأيت أن القرار أمامي واضح فجماهير الجيتوات كانت تنظر إليَّ كأحد قادتها وتثق في وهي لا تمنح

ثقتها إلا لمن تعتقد أنهم لن يبيعوها عند الرجل الأبيض وأنا لم أكن أنوي ذلك أبداً بل أنه ليس من طبيعتي .

شعرت بالتحدي والحاجة إلى التخطيط وإلى بناء منظمة تساعد في خلاص الرجل الأسود في أمريكا من الأمراض التي وضعته تحت قدم الرجل الأبيض . الرجل الأسود في أمريكا عليل عقلياً في تعاونه كالشياه على قبول ثقافة الرجل الأبيض .

الرجل الأسود في أمريكا مريض روحياً لأنه ولعدة قرون تقبل مسيحية الرجل الأبيض التي تطلب من الرجل الأسود المسمي مسيحياً ألا ينتظر إخاءً إنسانيًّا حقيقيًّا بل عليه أن يتحمل المصائب التي جلبها عليه الرجل الأبيض . لقد شوشت المسيحية تفكير الرجل الأسود وحجبت عنه الرؤيا وعلمته أنه إذا افتقد المأكل والملبس في هذه الدنيا فسيجدها في الآخرة .

الرجل الأسود في أمريكا مريض اقتصادياً ويظهر ذلك في حقيقة أنه كمستهلك وكمنتج تلقى القليل وأقل مما يستحق . ما نراه اليوم هو الطفيلية بصورتها الكاملة حيث يعيش الرجل الأسود في وهم يجعله يعتقد أن حالته في تحسن لأنه يعيش من ضرع البقرة الحلوب ذات الثلاث بطون التي تسمى أمريكا البيضاء . على سبيل المثال يصرف السود ثلاثة بلايين دولار على شراء السيارات سنويًّا ومع ذلك ليس هنالك أسود واحد يملك وكالة بيع سيارات . وكمثال آخر ، أربعون بالمائة من الوسكي المستورد غالي الثمن يمر نازلاً في حلوق السود الباحثين عن الاستهلاك الاستعراضي ومع ذلك الخمارات الوحيدة التي يملكها الزنوج تجدها داخل حمام أو غابة . والمثل الآخر المخجل هو هنا في مدينة نيويورك التي يقطنها مليون أسود ومع ذلك ليست هنالك عشرون شركة تجارية تستخدم عشرة أشخاص فما فوق ويملكها سود . السود لا يملكون ولا يتحكمون في تجارة المفرق في أحيائهم ولذا لا يتحكمون في تلك الأحياء .

أما أكبر علة عند الرجل الأسود فهي علته السياسية . لقد ترك الرجل الأبيض ينجح في تقسيمه إلى « ديمقراطي » أسود « وجمهوري » أسود أو إلى أسود محافظ وأسود متحرر بينما يمكن لعشرة المليون صوت أسود لو صوتوا كمجموعة واحدة أن يرجحوا ميزان القوى في أمريكا لأن أصوات البيض دائماً مقسمةبالتساوي . صندوق الاقتراع هو المكان الوحيد الذي يمكن فيه لكل أسود أن يكافح من أجل قضية الرجل الأسود بكرامة وبنفس أساليب القوة والنفوذ التي يفهمها الرجل الأبيض ويحترمها ، يخافها ويتعاون معها . أصغ إليَّ ودعني أقول لك شيئاً : إذا قامت مجموعة تمثل السود وقالت للعنصريين كارهي « النيجرز » أننا نمثل عشرة ملايين صوت ، سيقفز ذلك العنصري من مكانه ويقول لهم حسناً ، مرحباً بكم وكيف حالكم ؟ تفضلوا ! . وإذا ما صوت أهل ولاية مسسيبي السود كمجموعة واحدة فسينقلب سناتور إيستلاند المحافظ ليصبح

أكثر ليبرالية من سناتور جاكوب جافيتز وإلا لانتهى إيستلاند سياسيًا .

هل من سبب آخر يجعل السياسيين العنصريين يحاربون منح السود حق الاقتراع ؟

أية مجموعة بإمكانها أن تصوت كوحدة واحدة وتقلب الموازين لصالحها ولا تفعل ذلك فهي مجموعة مريضة سياسياً . في السابق جعل المهاجرون الجدد من تاماني هول أقوى شخصية سياسية في أمريكا وفي عام ١٨٨٠ انتخبت مدينة نيويورك أول إيرلندي كاثوليكي كعمدة لها وعندما أتي عام ١٩٦٠ انتخبت أمريكا أول رئيس من أصل إيرلندي كاثوليكي . وإذا ما صوت الرجل الأسود في أمريكا كمجموعة واحدة فسيكون له نفوذ وقوة أقوى من ذلك .

السياسة الأمريكية تحكمها المصالح الخاصة لجماعات الضغط ، وهل هنالك مجموعة لها مصالح عادلة ، أو تحتاج للوحدة ولأن تصبح ضاغطة أكثر من مجموعة الرجل الأسود ؟ يمتلك اتحاد نقابات العمال أكبر مبنى غير حكومي في واشنطن ويقف في موقع يمكنهم حرفيًا من مراقبة البيت الأبيض وليس هنالك من قرار سياسي يتخذ إلا أخذ فيه رأيهم . شركات وولايات البترول حصلت على بدل استنفاذ بترولي خفض من مصروفاتها بواسطة لوبي (أداة ضغط) كونته . أما المزارعون اليوم فهم أكبر مجموعة تدعمها الحكومة في أمريكا وكل ذلك بواسطة اللوبي الزراعي لأن المليون مزارع أمريكي لا يصوتون في الانتخابات كجمهوري أو ديمقراطي أو كمحافظ أو ليبرالي بل كمزارعين .

الأطباء يملكون أقوى لوبي في واشنطن ونفوذهم المصلحي يحارب بنجاح ضد برنامج الرعاية الطبية التي يحتاج لها ملايين من الآخرين . ولم لا ؟ هنالك أيضاً لوبي مزراعي البنجر ولوبي القمح ولوبي رعاة الأبقار ولوبي الصين كما أن هنالك بلاداً صغيرة لم يسمع بها أحد لها لوبي في واشنطن يمثل مصالحها الخاصة .

من أجل ذلك كونت الحكومة قسماً للتعامل مع المجموعات ذات المصالح الخاصة التي لها صوت مسموع . وزارة الزراعة مثلاً تهتم بمطالب المزارعين وهنالك أيضاً وزارة التعليم والصحة والرفاهية . ووزارة الداخلية تهتم ضمن ما تهتم ، بمطالب الهنود الحمر . لكن هل المزارع والطبيب والهنود الحمر أهم مشاكل أمريكا اليوم ؟ لا ، أعظم مشاكلها هو الرجل الأسود . ينبغي أن تكون هنالك وزارة في واشنطن أكبر من البنتاجون تهتم بكل صغيرة وكبيرة من مشاكل الرجل الأسود .

اثنان وعشرون مليون من السود وهبوا أمريكا أربعمائة عام من الكد ، نزفوا دماً في كل معركة منذ حرب الاستقلال ، حضروا إلى أمريكا قبل الحجاج الأوائل وقبل الهجرات الجماعية بزمن طويل ومع ذلك نجدهم اليوم في القاع في كل شيء .

على كل واحد من الاثنين والعشرين مليوناً أن يدفع غداً دولاراً لبناء لوبي بطول

ناطحات السحاب في واشنطن . ولم لا ؟! وكل مشرع في الكونجرس ينبغي أن تصله كل صباح رسالة عما يحتاجه الرجل الأسود ويبغاه . صوت الرجل الأسود القوي يجب أن يصل أذن كل مشرع سيصوت في موضوع ما .

القوة السياسية والقوة الاقتصادية هما حجر الزاوية في المعاملات في هذا البلد . والرجل الأسود ليست له قوة اقتصادية وبناؤها يتطلب زمناً لكن له من القوة السياسية في الوقت الحاضر والنفوذ ما يمكنه من أن يغير مصيره في غمضة عين . ما أفكر فيه كان عملاً كبيراً والمنظمة التي خلقتها في خيالي كانت ستكون واحدة تستنفر الرجل الأسود أن يتحصل على حقوقه الإنسانية ويعالج علله الذهنية والروحية ، الاقتصادية والسياسية . لكنك إذا أردت أن تحقق أمراً ذا قيمة ، عليك أن تبدأ بخطة في مستوى ذلك الأمر .

المنظمة التي كنت أؤمل أن أبنيها كانت ستختلف كثيراً عن أمة الإسلام كونها ستحتضن السود من كل الأديان وستمارس عمليًّا ما كانت أمة الإسلام تنادي به فقط .

بدأت الإشاعات تنتشر خاصة في مدن الساحل الشرقي والناس تتساءل عماذا أنا فاعل ؟ حسناً أول ما عليَّ أن أفعله أن أجتذب رؤساً وأياد أكثر من رأسي ويدي . وفي كل يوم كان عدد من الأخوة المتحمسين للعمل والذين كانوا معي في المسجد رقم سبعة يعلنون انفصالهم عن أمة الإسلام لينضموا إليَّ . وفي كل يوم يصل إلى علمي بطريقة أو بأخرى نبأ عن تأييد غير المسلمين من الزنوج لي ومن بينهم لدهشتي كثير من زنوج «الطبقة الوسطى» و « العليا» من البرجوازيين الذين سئموا الجري وراء المركز الإجتماعي. بدأت النداءات ترتفع وتقول : متى ستدعو إلى اجتماع ؟ إلى التنظيم ؟

اتفقت مع فندرق تيريزا ليأجروا لي قاعة كارفر حتى يتسنى لي أن أعقد فيها أول اجتماع وهي تقع عند ملتقى الجادة ١٢٥ والشارع السابع ويمكن تسمية هذا الموقع بفتيل انفجار هارلم .

نشرت صحيفة **أمستردام نيوز** خبر الاجتماع وفسر بعض القراء ذلك بأننا سنقيم مسجدنا المؤقت في فندق تيريزا . هناك بدأت تصل برقيات وخطابات ومحادثات هاتفية لي من جميع أنحاء القطر وكان طابعها العام هو أن ذلك تحرك انتظره الناس طويلاً . أناس لم أسمع بهم أبداً بعثوا يؤكدون لي ثقتهم فيَّ بأساليب هزت شعوري . كثيرون قالوا أن قواعد أمة الإسلام الأخلاقية قد نفرتهم ولكنهم الآن يودون الانضمام لي.

اتصل من خارج المدينة طبيب يملك مستشفى صغيراً ليعلنني بانضمامه لي وكثيرون آخرون بعثوا تبرعاتهم قبل أن نعلن عن خططنا حتى ، كما كتب

مسلمون من المدن الأخرى معلنين أنهم سينضمون الي وكان الطابع العام لتعليقاتهم هو أن المسلمين غير نشطين وأن أمتهم تتحرك ببطء في المواضيع العامة .

أدهشني أن عدداً غير قليل من البيض اتصلوا أو كتبوا عارضين مساعدتهم أو حتى الانضمام .الإجابة كانت لا ، الانضمام غير متاح لهم وأن عضويتنا سوداء صرفة لكن بإمكانهم وإذا أملت عليهم ضمائرهم ذلك أن يساعدونا مالياً في منهاجنا البناء لحل قضايا أمريكا العنصرية .

انهمرت على الدعوات للحديث ، اثنان وعشرون دعوة في البريد الصباحي لأحد أيام الاثنين (أول الأسبوع) وما أدهشني هو أن عدداً غير عادي منها أتى من قساوسة جماعات مسيحية بيضاء .

دعوات إلى مؤتمر صحفي ووقفت وأمامي مكبرات الصوت وأضواء آلات التصوير تومض بين الفينة والأخرى وعدد كبير من الصحفيين رجالاً ونساءً ، بيضاً وسوداً يمثلون وسائل إعلامية يصل مداها أركان الأرض جلسوا ينظرون إليَّ بأقلامهم ودفاترهم المفتوحة أمامهم .

أعلنت أمام ذلك الملأ : « إنني سأنظم وأقود مسجداً جديداً في مدينة نيويورك وسيعرف (بمؤسسة المسجد الإسلامي) . سيعطينا ذلك القاعدة الدينية والقوة الروحية اللازمة لتخليص أهلينا من الرذائل التي تتخر في النسيج الخلقي لمجتمعنا الأسود .

« ستكون الرئاسة المؤقتة لمؤسسة المسجد الإسلامي في فندق تيريزا بهارلم وستصبح القاعدة لبرنامج نشط صمم لرفع الظلم السياسي والاستغلال الاقتصادي والذل الاجتماعي الذين يعاني منهم كل يوم اثنان وعشرون مليوناً من الأفرو أمريكيين (الأمريكيين الأفارقة) ».

ثم بدأ الصحفيون يصوبون أسئلتهم نحوي .

لم يكن الأمر كله بالسهولة التي أتحدث بها عنه . كنت دائما متيقظاً لحقيقة أن عدداً غير قليل من إخواني السابقين سيحاول أن يجعل من نفسه بطلاً أمام أمة الإسلام بقتلي . أنني أدرى بطريقة تفكير أتباع إلايْجا محمد إذ أنني علمت الكثيرين منهم التفكير . كنت أعلم أنهم أسرع الناس إلى القتل إذا ما شعروا أن ذلك ما يطلبه منهم الله .

هنالك تحضير آخر كنت أعلم أنني بحاجة له كان على بالي منذ مدة طويلة – كعبد الله . لكن ذلك يتطلب مالاً ولم يكن معي مال .

ركبت الطائرة إلى بوسطن لاجئاً مرة أخرى إلى أختي إللا . ومع إني أغضبتها أكثر من مرة لكن إللا لم تخذلني أبداً منذ أن أتيتها وأنا ريفي صغير أخرق من ميشجان .

قلت لها « إللا ، لقد نويت الحج إلى مكة ».

قالت « كم من المال ينقصك ؟ » .